حديقة أبيقور

حديقة حقا هذا الكتاب الذى ألفه «اناتول فرانس»

وترجمة الاستاذ محمد عبدالحليم محمود وراجعه الاستاذ الدكتور عبدالحليم محمود.

ولد أناتول فرانس فى باريس سنة ١٨٤٤، وكان والده بائع كتب، فشب فى جو منعم بعصارة الثقافة الفكرية قديمها والحديث. وكان بطبيعته طلعة شغوفا بالقراءة مثله فى ذلك كمثل الجاحظ الذى كان يبيت أحيانا فى دكاكين الوراقين يلتهم منها كل ما تقع عليه عيناه ثم عمل موظفا بمكتبة مجلس الشيوخ فارتوى منها عللا بعد نهل.

هل اختيارى لهذا الكتاب، لون من رد الجميل فقد دافع اناتول فرانس عن المرأة حتى حين أبت المسيحية على المرأة أن تكون من هيئة الاكليروس، لأنها ترهبها وتظهر خطرها للعيان، فتردد قائلة مع سفر الجامعة:

«إن ذراعى المرأة كمثل شرك الصياد» ثم هى تحذرنا من أن نعلق أملنا على المرأة: «لا تعتمدوا قط على قصبة تميل بها الريح حيث تميل، لا تضعوا فيها ثقتكم فكل جسد كالحشائش، ومجده يذهب ويذبل كما تذبل أزهار الحقول».

بل تخشى المسيحية وترهب مكر (كل مكر يتضاءل إذا ما قورن بمكر المرأة).

يقول اناتول فرانس معلقا (ذلك الخوف وتلك الرهبة كان من شأنهما إظهار المرأة فى ثوب من القوة والجبروت). بل يقول فى طرافة لا نخطئها:

لقد ضاقت الكنيسة ذرعا بجمال كليوبطره ولاييس والجميلات فاعتبرتهن سادة من سادات جهنم.. وياله من مجد! إن أشد النساء تواضعا وأكثرهن زهدا وأبعدهن عن الرغبة فى تعكير صفو أى إنسان، ليحلو لها أن تكون قادرة على تعكير صفو الحياة عند بنى البشر أجمعين. وإن كبرياءها ليغتبط بما تتخذه الكنيسة ضدها من الحيطه والحذر.. ألم يأتك نبأ القديس أنطوان المسكين وهو يصرخ فيها قائلا «اغربى عنى أيتها الحيوانه! لكن فزعه هذا يرضيها ويروقها، فهى تسعد بأن ترى نفسها من الخطورة بمكان لم يكن يتطرق إليه ظنها.

ويتطرق أناتول فرانس من هذا إلى نشيد يرقرقه بين يدى المرأة فى حب يذكرنا بقصائد الشابى ومحمود حسن اسماعيل فى المرأة. يقول مفتونا:

هل أتاك نبأ القديس جيروم؟ أعلمت أنه، فى روما وفى آسيا قد استولى على قلبه الرعب والفزع منك فهرب إلى حيث يكون بمنأى عنك، إلى صحراء قاحلة رهيبة يتغذى فيها من الجذور، وتلفحه الشمس بشدة وعنف، حتى لم يعد إلا جلدا أسود على هيكل من عظم، ولكنه، وياللهول، وجدك فى منفاه، ولم يهرب منك إلا إليك، فامتلأت وحدته بالصور الذهنية عنك، تلك الصور التى أضفى عليها الخيال جمالا وسحرا فأصبحت فتنة ليس لها فى عالم الواقع مثيل.

هى حقيقة كثيرا ما جرى بها الرهبان فإن ما توحين به من أحلام أعظم فتنة، إذا كان ذلك ممكنا، من مثالك فى عالم المحسوس. فكان جيروم ينفر من خيالك فى هلع كما كان ينفر منك.. بيد أنه عبثا حاول أن يتخلص من تلك الفتنة بالصوم والصلاة. فقد ملأت حياته - التى طردك منها-، بالأخيلة والأحلام.

ذلك هو سلطان المرأة على قديس، ومن المشكوك فيه أن يصل إلى هذه الدرجة بالنسبة لشخص من رواد ملهى «الطاحونه الحمراء» بباريس فحاذرى إذن ياسيدتى من أن يذهب بعض سلطانك بذهاب **الايمان**.

أتريدين الصراحة؟ إنى لا أرى أن مذهب العقليين نافع لك. ولو كنت مكانك لما أحببت قط هؤلاء العلماء الفزيولوجيين «علماء وظائف الأعضاء»فانهم فضوليون يشرحون من أحوالك أكثر مما يجب فيزعمون أنك مريضة عندما نعتقد نحن أنك ملهمه، ثم يعمدون إلى الملكة الرائعة، ملكة الحب والألم التى هى من مزاياك فيطلقون عليها اسم «سيطرة الحركات المنعكسة». ما أبعد الفرق بين هذه النغمة فى الحديث عنك وبين نغمة «القصة الذهبية»! فأنت فيها «الجماعة البيضاء» سوسن الطهارة، وردة الحب». وهذه الألقاب التى تضفيها عليك القصة الذهبية لاشك أجمل وألطف من أن تسمى «هيستيرية، خيالية وهمية، مصابة بالصرعة» الخ هذه الأسماء التى أصبح الناس يدعونك بها يوميا منذ أن انتصر العلم.

أناتول فرانس فى هذا الموضع يذكرنى بذلك العاشق الذى أخذ يتغنى بمحبوبته امام صديقه العالم (واحد من علماء وظائف الأعضاء) أو واحد من علماء البيوكيمسترى.

ويقول: من أى شيء خلقت من نور القمر؟ من جمال الورد؟ من رقة الياسمين؟ من.. من.. من .. الخ

فرد عليه صديقه خلقت من الماء والمعادن والأملاح و...

فعكر عليه صفو الخيال.

أعود إلى اناتول فرانس المستمر فى سبحاته الشاعرة..

سيدتي لو كنت مكانك لأبغضت كل هؤلاء الذين ينادون بتحرير المرأة ويريدون أن يساووها بالرجل فى الحقوق والواجبات، فهم إنما يدفعون بمجدك إلى الانهيار. وهل تجدين هناك فائدة أو متعة فى أن تصبحى مساوية لرجل من المحامين أو الصيادلة؟

فخذى حذرك ياسيدتي.. لقد خلعت عنك شيئا من ما يترك وزال عنك بعض سحرك وفتنتك.. بيد أن الأمر لم يضع برمته من يدك، فمازال الرجال يقتتلون ويفتقرون وينتحرون من أجلك.. غير أن شباب اليوم يجلسون فى عربة الترام ويتركونك تتأرجحين على السلم دون أن يتنحوا لك عن المقاعد. فعبادتك سائرة فى طريق الزوال بنفس الخطى التى تسير بها العبادات القديمة.

أقول طبعا العبادة لله وحده من قبل ومن بعد.

يبدو أن اناتول فرانس لم يفرغ بعد من اطراء المرأة فهو يرى على سبيل المثال، «الصالونات» مدرسة نافعة لرجال السياسة وأن التقاليد المتبعة فيها تكاد تكون مفقودة فى مجالسنا النيابية وأن - وهذا بيت القصيد- هذه الصالونات قوام الاجتماعات فيها **إنما هو المرأة**، فهى الملكة ذات السيادة، وكل ما يجرى فيها إنما هو منها، ولها

والمرأة هى العامل الجوهرى فى تهذيب الرجل: **تبث فيه الفضائل اللطيفة وتعلمه الأدب والفطنة** وتوحى إليه بتلك العزة التى تتحرك عن اتيان ما يضجر. إنها ترشد بعض الرجال إلى فن الظرف، وتهدى الجميع إلى الخلق الذى يجعلهم يبتعدون عن الاضجار والاحلال.. ونحن نتعلم منها أن المجتمع أكثر تعقيدا وأدق تنظيما مما يتخيله العامة عادة أثناء مناقشاتهم فى النوادى السياسية.

أتراه يقصد الأحزاب السياسية؟ ربما

***

ينتقل اناتول فرانس فى حديقته إلى مكان آخر أو موضوع آخر.

فيقارن بين العلم والفن.. وموقفهما من «الحقيقة». فالفن لا يرمى إلى التعبير عن الحقيقة فهى موضوع العلوم ولهذا لا سبيل لأن نتلمسها فى الأدب الذى لا يرمى ولا يمكن أن يرمى إلا إلى **الجمال**

ومادمنا بصدد الأدب فإننا نقف عند ظاهرة أخرى هى ظاهرة الضحك، الذى ينقلب بكاء فى الأدب إذا كان موضوعه إنسانيا. كقصة دون كيشوت التى يتجلى فيها الحزن **المطمئن** الضاحك مع أنها تسيل عبرات كثيرين من القراء.

إن اناتول فرانس يرى قصة «دون كيشوت» وقصة «كانديد» رسالتين فى التسامح والرحمة.. والترفق والطيبة.

ويتحدث اناتول فرانس عن «القارىء» أو ما أسميه فن الرؤية.. إنه يرى قيمة الكتاب تتوقف على القارىء فهو الذى يسبغ عليه حرارة العاطفة أو فتورها.. بل إن مثل الكلمة فى الكتاب كمثل الأنامل السحرية تلمس عصبا من أعصاب ذهننا لمس الريشة للوتر فتحدث لحنا يلائمها فى الروح يتردد صداها طويلا.. ومهما كانت يد الفنان بارعة ملهمة فإن ما تثيره من لحن تتوقف قيمته على نوع أوتارنا الداخلية.

ويبدو أن اناتول فرانس لا ينتقل من الحديث عن المرأة إلا ليعود إليه. إنه يذكرنى بالشريف الرضى حين خرج من بغداد فسأله السائرون ما تشتهى؟ فقال: أعود.

فقد التمس اناتول فرانس العودة إلى موضوعه الأثير حين عرض لكتاب صغير باللغة الألمانية اسمه: «تعليقات على هامش سفر الحياة» وضعه: «جرهرد أمنتور» وهو يحوى الكثير من الحقائق الانسانية فقد تناول المؤلف صورا لحياة المرأة فى ظروفها العادية وقد أرقه أن هم البيت الذى يلقى على عاتق المرأة يأتى على جمالها ونشاطها، ويذهب حتى بمساس عظامها.. أرأيت إلى السؤال الخالد تواجهه الأم فى حيرة يوميا: ماذا يجب أن نطبخ اليوم؟ أرأيت الى الحاجة اليومية من كنس البيت وتنفيض الفراش وتنظيف الثياب، وإزالة الغبار عن أثاث المنزل؟ إن كل ذلك بمثابة نقطة الماء التى بدوام سقوطها تنتهى فى بطء ولكن فى يقين إلى الذهاب بروح المرأة وبجسمها.

فأمـام نيران المطبـخ تتبدل تـلك الفتـاة الجميلـة ذات البشرة الـبيضـاء والخدود الوردية والضـحكة الرنانة.. تتبدل خلقا آخر فتصبح كالمومياء السوداء ذات المنظر الأليم.

فى هذا المطبخ المملوء بالدخـان، بل فى هذا المعبـد حيث يغلى اللحم فى قـدره، تضحى ربة البيت بأعز ما تملك: الشباب والحرية والجمال والسعادة.

***

أتراه لهذه الأسباب، وغيرها بالطبع كانت آخر كلمة نطق بها فى حياته: «واأماه» وكأن كيانه كله تجمع فى شفتيه التى ترنمت بهذا النداء فى حنان رقيق وحب وثيق.

ويشـفق اناتول فرانس على المـرأة من العمل بأعـبائه ويهـتف فى ألم: (قليل من بنات حـواء سيجدن معه الفراغ اللازم لإنماء حسنهن وذكائهن فى أسلوب جمالى متسق..

ويتســاءل حائرا: ما مـصير الحب إذن وسط هذا كله؟ إن مـصيره يتكيف حـسب قدرته على تملك القلوب.. وعـدوه الألد هو الجوع.. ولاجـدال فى أن المرأة ليست بمعـزل عن الجوع.. فـمن الراجح أن المرأة فى القرن العشـرين ستقوم بأمر الطبـخ كـما كانت تفعل إبان القرن التـاسع عشر، اللهم إلا إذا رجعنا، بفضل الاشتراكـية، إلى العهد الذى كان فيه الصيادون يلتهـمون فريستهم فى وحشية دون طهى أو شواء، والذى فيه كانت فينوس رمز الحب تجمع بين المحبين فى الغابات.

وفى إحدى شطحاته يقول اناتول فرانس:

لو كان لى من الأمر شيء لجعلت فترة الشباب فى نـهاية الحياة.. فبعض الحشرات تنقلب فى تحولاتهـا الأخيرة إلـى مخلوق يمتـاز بأجنحة كـبيرة ولا مـعدة، له، وما انقلبت إلـى تلك الصورة المطهرة إلا لتحب ساعة من نهار ثم تموت.

هذا كله حتى لا يحط الجوع من شأن الحب.. ويسترسل اناتول فرانس ثم كنت أجعل للرجل والمرأة فى تحولهـما الأخيـر، أجنحة لامعـة كلها سناء، وأصرف عنهـما هم الجوع فـيعيشـان على قطرات الندى وعلى الحب، حتى إذا أدركهـما الموت متحابين وهكذا كنـت أمنحـهما الحب جائزة وتاجا لحياتهما الفانية.

ليت أناتول فرانس سمع أو وعى وصف القرآن الكريم للجنة قبل اربعة عشر قرنا بأنها جنة راقية صافية، أهلها (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما).

جنة ليس بها شر بل نقاء الصدر (ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الانهار) الاعراف/ ٣.

فالصدر النقى قدمه على نعمة الأنهار تجرى من تحت عيون أهل الجنة.. والانهار الجارية امام العين (أنزه ما يلذ النظر وأطهره) كما يقول الشيخ دراز.

وحتى الطعام الذى يقول به أعداء الإسلام فى محاولة غمز، ليس طعام اللذة حيث يقول القرآن الكريم (فواكه. وهم مكرمون) أى غير محتاجين حفظا للجسم

أو ردعا للجوع بل هو تكريم وتنعيم فإن المفهوم الإسلامى لأهل الجنة أن الله يمن عليهم بأبدان لا تقبل الفساد أو الضعف أو الشيخوخة أو التحلل بدليل وعده لهم بالخلود وبالشباب.

حتى الزواج في الجنة الاسلامية رفقة علوية (أزواج مطهرة) وزوجات (فيهن خيرات حسان) الرحمن ٧٠ و (قاصرات الطرف عين) الصافات ٤٨

وصف القرآن الكريم الجنة بأكرم وأجمل وأطيب الصفات ثم قال فى النهاية (ورضوان من الله أكبر).

***

والفنان الساكن في اناتول فرانس يرى الشعر الجميل كريشة العواد تمر على أوتار القلوب الحساسة.. والشاعر لا يبث فى نفوسنا أفكارا جديدة، وإنما هى أفكارنا نحن التى تغرد فى الأعماق حينما يوقظها الشاعر الفنان.

وما فهم الآية الفنية إلا خلقها فى النفس من جديد. ولذلك فالأثر الفنى الواحد ينعكس على نفوس المشاهدين فى صور شتى مختلفة كل الاختلاف.

لذلك نرى الإنسانية لا تكاد تتعشق إلا الآيات الفنية أو الشعرية التى يحوط الغموض بعض عناصرها، والتى، بسبب هذا- تقبل مختلف التأويلات.

ويتحـدث اناتول فرانس حديثـا ممتعا عن هوية جـمع الكتب فهي في نظره هواية محـمودة.. واذا كان الناس سخروا من الذين يقتنون الكتب ويتخذون منها حلية كبقية الحلى، واذا كان هؤلاء الذين يقتنون الكتب جـديرون أحيانا بالسخـرية، فإن هذه الحالة هى فى الواقع حالة كـل المحبين، سواء منهم من أحب الجمال أو من أحب الكتب. ولكنه على العكس يجدر بنا أن نغبطهم على أن زينوا حياتهم **بلذة وديعة هادئة لا ينضب معينها**.. وحـسب الناس أنهم يوقعـونهم في الحيـرة والارتباك إذ يعتـرضون عليهم بأنهم لا يـطالعون كل ما جـمعوا من كـتب، ولكن أحدهم يجيب دون تردد على هذا فـيقولك (وأنتم، هل تأكلون في الأوانى الخزفـية الأثرية التى تجمـعونها في المتاحف؟) وهل هناك أشرف من أن ينضد الانسان كتبا فى مكتبته؟ حقيقة أن ما يقوم به مقتنى الكتب يشبـه إلى حد ما مـا يقوم به الأطفال على شـاطىء البحر إذ يجمـعون الرمال ويكرمـونها، فيـجهدون أنفـسهم عبـثا وتأتى أمواج البـحر فلا يلبث مـا أقاموه أن ينهـار.. ولاشك أن الأمر لا يختلف عن هذا بالنسبة لمجمـوعات الكتب واللوحات.. ولكن يرجع السبب فى ذلك إلى ظروف الحيـاة وقصـرهالا إلى الهواة أنفـسهم.. فالبـحر يزيل أكـوام الرمال .. ووكـيل المزاد العلنى يزيل مجـموعات الكتب.. ومع هذا فليس هنـاك ما هو أفضل من تشـييد أكوام الـرمل فى سن الطفولة وجمع الكتب فى سن الكهولة.

***

وبعد فإن حديقة ابيقور إن هى إلا حديقة القارىء بما فيها من تأملات صوفية أحيانا.. فلسفية أحيانا.. انسـانية أحيانا.. شطحه أحيانا.. هداة أحيانا.

وهى فى النهاية صورة حية لأناتول فرانس الكاتب والمفكر والناقد الاجتماعى.

وحسب الكاتب منزلة أن يكون صادقا مع نفسه ومع الناس.